"غيم لأحلام الملك المخلوع" (١)

بقلم أحمد حلاوي

ليس سهلا ان ندخل عالم محمد علي شمس الدين الشعري ، ومتى دخلناه لا نستطيع مفارقته ، اذ نبقى فيه بعض الوقت اسرى لمغامرة شجاعة ، وعندما ننتهي من قراءته ، من سبر اغواره ، يسكننا كجرح واسع يأخذ موقعه ما بين القلب والذاكرة .

ففي عالمه الفسيح الخلاب محاولات جادة لفهم انسان هذا العصر ، للدخول في حركة الواقع التي تتلبس فيها الاشياء ، كل الاشياء ، معاني واضافات جديدة، تخرج من لغة تتفاعل مع بعضها وتحترق لتبرز احيانا الجوهر ، واحايين اخرى التمزق الحاصل للحب والفرح والارض والمرأة والانسان ، واخيرا الفد الهاجس الذي يزيد من حدة الجوهر اشتعالا والتمزق نزفا واكتئابا .

فالمرأة عنده ليست الزوجة او الحبيبة او الام ، والارض ليست مطرحا للعشب او الشجر او الصخر ، وكذلك الفرح فهو ليس الامل او الانتصار او الضحك .. وفي هذا كبرياء شعر شمس الدين وفي هذا التحدي تميزه وتفرده .

فالمرأة ، مقتولة او مسبية قبل ان « تمثل » دورالام او الحبيبة ، والارض مزرعة للدم او للرماد او للقتل، اما الشجرة فهي ذاتها .. الشجرة التي اقتربت منها حواء .. والاحلام عادة لملك مخلوع .

بمعنى آخر ، ان كل الرموز التي يطلقها الشاعر تحت اسماء متعددة تحمل في ذاتها اسباب انفجارها .. تسير في اتجاهات متعددة ، متشابكة ، لكنها تلتقي في هاجس الرعب من الموت واحيانا في الحب للموت وبينهما يتجول الشاعر شمس الدين ، ليأخذ شعره امتداده في القلب والعقل .. وبينهما .. بين الهاجسين يتجول شمس الدين بمهارة كاشفا نفوسنا ، اضطراباتها ومواطن الالم فيها . ويبلغ الذروة عندما يضع انسان هذا العصر امام واقعه المؤلم « كشموع تطفأ حين تضاء » وقبل هذا « موجة لا تصل » .

وفيما تقدم يرتفع « غيم لاحلام الملك المخلوع » الديوان الثاني للشاعر شمس الدين فوق كل انتاجات الحرب من جهة ، ومن جهة اخرى معلنا تحديه لكل القوالب والمناهج التي اطلقت من هنا وهناك ، محاولة ان تأسر الشعر بما يسمى ، تجاوزا الآن وربما غدا، صراع الطبقات .

كيف يبرز هذا التحدي .. واي المنعطفات التي تميزه ياخذ ؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال ، لا بد من القاءالاضواء على المناخ الذي نمت فيه القصائد لتأخذ مكانها بين دفتي الديوان .

القصائد بمعظمها ، تعود لتواريخ كان فيها لبنان مسرحا للقتل ، ويسبح في بحر من الدماء ، حيث تعطلت كل اشكال التعبير ، ليبقى الرصاص اللغة الوحيدة ،مع ما كانت تخلفه هذه « اللغة » من جثث وموت ودمار وسقوط للحضيض في العلاقات الانسانية والاجتماعية، لتأخذ « السادية » موقعها في الزوايا والشوارع والحوانيت والازقة .

رافق ذلك غياب فعلي للقوى التي كانت تكبت هذه الاشكال ، ولم تستطع القوى البديلة التي توسعت دائرتها خلال الحرب ان تكون بحجم المرحلة ، الامر الذي ادى الى صدمة صدعت كل النفوس ، اضف الى ذلك انها تراجعت نحو الصفر او اقل بكافة اشكال البناء السياسي والفكري والاجتماعي التي كانت تدلك عن حالة متقدمة لمستقبل كثيرا ما حلمنا به ، دون ان يتراءى لنا ولو لمرة واحدة انها ستقتل بالشكل الذي تم .

من هذا المناخ ، خرج ديوان « احلام الملك » ، محاولا ان يرصد العلاقات الجديدة التي نمت خلال الحرب ، واستمرت بعدها صعودا ، وما يترتب عنها من انعكاسات على واقع الانسان وانعطافات في مسلكه .

وقبل توضيح هذه الانعطافات التي لجأ اليها البعض، وقد يلجأ اليها البعض الآخر ، لا بد من الاشارة الى ان موقفي منها يختلف عن موقف الشاعر الذي يكتفي برسم هذه الانعطافات ويتركها معلقة ، بينما كنت اتمنى في هذا المجال الدعوة لها .. فالغثيان الذي رافق روكانتان في الغربب ، ولا مبالاة بطل باربوس الذي

(١) غيم لاحلام الملك : مجموعة شعرية صدرت للشاعر محمد علي شمس الدين عن دار ابن خلدون ـ بيروت . تموز سنة ١٩٧٧ .

يراقب ما يجري في الخارج من ثقب الباب ، وكذلك نهاية تشيللي .. همنغواي تبدو لي اكثر عمقا من كل « الكلام » الذي عبئنا به على امتداد عشرات السنين في العالم العربي .

قد يقال ان مثل هذا الكلام هو نوع من العدمية ،لا بأس ، زد على ذلك ، ان رغبتي في الكتابة عن « غيم لاحلام الملك المخلوع » تنطلق لكونه محاولة للدخول في ذاتي وذوات الاخرين . للدخول في الحالات التي يخاف البعض الدخول اليها خوفا من الحقيقة .

ومن هنا يطرح الشاعر شمس الدين تحديه .
اكثر من هذا !
آثرت ان أقيم دونما اتجاه
واسكن استدارة الفصول
لا أمّ لي : أختار اية امرأة
لا وجه لي : أختار مومياء متحف قديم
(من قصيدة : من مراثي فاطمة) .
اكثر من هذا ايضا :
من أفرغ هذا البحر من البحر
ومن أفرغ هذا القلب من الاحلام ؟
يا موت هلا
يا موت هلا
يا موت هلا
في ليل ما
في ارض ما
في قمر ما (جبل الريحان) .

حين يقدر لنا نحن الاحياء اختيار الموت الذي نريد، ونقف امام لحظة الاختيار الفاعلة ماذا نقول ؟ نستسلم له دون ان نحدد لونه ، وفي لحظات الاستسلام هذه ، نتذكر ان احلامنا الطويلة بأن نملك مصباح علاءالدين السحري ، ومنارة علي بابا لم تكن سوى كتلة اوهام ، تزيد من حزننا للآتي على الاحياء ، ولو عكسنا هذه الصورة واخترنا الحياة ، هل نحظى بذاك المصباح وتلك المفارة، قل هل نحظى بما يتيح لنا ان نستمر بتلك الحياة ، دون تمزق او خوف، او دون ان تتقاسم اجسادنا الارض والهواء وما بينهما ؟ وهل نبتعد عن التعامل بالارقام بانتظار ان تدنو الساعة لكتابة وصيتنا ؟

ان انسان محمد علي شمس الدين ، هو الحقيقة،تلك الحقيقة التي يضطرنا خوفنا لان نسلك كل الطرق الآيلة الى الابتعاد عنها، وان ندخل في الدوامة تلو الاخرى ، وهو الرمز للارض « الدوارة كالطاحون على جسد الانسان » . والانسان هذا كتب عليه الموت قبل ان يولد « هل اكشف الآن سري ؟ / تفحصت مروان منذ الطفولة / ومروان طفل عثرت عليه يفتش / بين الخرائب عن شكله » وكأنه بذلك يتجاوب مع صيحة « كيتس »حين كتب يقول : « انني اشعر وكأنني ميت منذ زمن ، وانني انما اعيش الآن حياة ما بعد الموت » . كما يتجاوبمع « ابو حسين » بطل رواية « مواطنون من جنسية قيد الدرس » لمحمد عيتاني ، الذي خرج من براد الموتى في مستشفى الكرنتينا .. ليتابع موته تماما كما كان في « البراد » حينما وضعوه فيه ظنا انه ميت بعد احدى الغارات الاسرائيلية على بلدة كفر كلا الجنوبية .

وتأخذ هذه الصور بعدها الاعمق الانسانيوالوجودي في قصيدة « غيم لاحلام الملك المخلوع » لتبرز بجلاء هموم الانسانالمحاصر باوهام وكليشهات الحاضر ، التي تعبثبه، تتقاذفه دون ان يملك في ذلك رايا او موقفا :

واقمت وحولي مدرستان لأهريمان
مكتوب فوق مداخلها عهد الشيطان :
١) السطر الاول : لا تقتل .
(هل يقتل مذبوحك يا مولاي)
٢) السطر الثاني : لا تسرق .
(اسرق شبرين لقبرك في الصحراء)
٣) السطر الثالث : لا تشرب .
(آه احترقت اغصان دمي
من يقطع عني جذر الماء ؟
الى ان يصل للسطر الخامس :
احلامي موحشة في آخر هذا الليل .

فالانسان عنده محاصر ، بسطور خمسة ، بوصايا عشر ، او في منزله الاول حين تسأله وآلدته الى اين ؟ كلما همّ بالخروج ، او في منزله الثاني حين تعيد عليه زوجته ذات السؤال وهو محاصر بالاطفال ايضا .

وهذا الاستنتاج الرهيب يفضي بنا الى القول مع الشاعر : هل هناك من طريق الى الخارج ؟

الحرية .. الحرية .. الحرية في اختيار اي شيء، لكن من اين تأتي ؟ « ايفان الرهيب » الذي انهزم على مسرح الحياة لم يندحر او يتبخر، وجحيمه ربما اصبح شيئا مألوفا في البقعة التي تحرك عليها هذا « الايفان » .

والصورة ذاتها بشكل آخر : تمثال الحرية .. اضخم تمثال للحرية في العالم ، لا يصدر للعالم الا اقفاص السجون . والسؤال يبقى من اين تأتي الحرية :

« لان اصابعي بلا بصمات ، وجسدي بلا علامة ، وكريات دمي لا سلب فيها ولا ايجاب .
لان زاوية انحدار الانف صفر ، واتساع رؤية العينين الى اللانهاية ، ولا سجل لي في دوائر الامن والجمارك والسجون .
احس انني الحر الوحيد بينكم
انا مركز الارض وانتم الطبقات »

يلوح لي ان هذه الكلمات جد بسيطة، الا ان ما تذهب اليه ليس كذلك ، انها صورة رائعة تستجيب

لاولئك الذين يبحثون عن طرق تؤدي بهم الى خارج الجلد ، او ربما تحاول ذلك ، وفي الحالتين هي خطوة جيدة نحو الذات لمعرفتها .. معرفة ما يجب ان تكون عليه .

ولنقرأ معا هذه الكلمات لنيتشه التي كتبها عام ١٨٦٥ :

« بالامس كانت هناك عاصفة عنيفة تهدد بالهبوط ، فأسرعت الى تل قريب يدعى لوتش ، وجدت في أعلاه كوخا صغيرا ، ورجلا يذبح عنزتين صغيرتين ، في حين كان ابنه يتفرج على ما كان يجري ، وفي تلك الاثناء انقضت العاصفة علينا بالرعد والمطر ، فشعرت بشعور لا يوصف من القوة والحيوية .. ان البرق والعصف عالمان مختلفان ، قوى حرة ، لا خلق يقيدها ، الارادة النقية التي لا تربكها الاضطرابات الذهنية .. ياللسعادة يا للحرية » .

مائة سنة ونيف تفصل ما بين صرخة شمس الدين ونيتشه ، لكن من منهما الصوت ومن الصدى ؟ مسألة لا يهمنا فيها سوى اننا « نحن » نسكن ما بين الصوت والصدى .. وما يهمنا ايضا هو انهما عرفا كيف ينفضان عنهما الغبار الذي يغطي هاماتنا .

الحديث عن التحدي عند شمس الدين قد يطول كثيرا . واذ اكتفي بابراز الفارق ما بين ما يرسمه الشاعر من منعطفات رائعة ، وبين ما رسمه « الآخرون » من فصول الخلاص التي أحالتنا الى رماد أو دمى ، أختم قائلا :

قد يعتقد مما تقدم ان الشاعر يدعونا لموت جماعي ننتهي فيه احزاننا ، وهنا يكمن الخطأ الجماعي الذي حدد مسار « نقادنا ! » في مدار البحث عن مشكلة الانسان الباحث عن هوية .. علما ان اهم معاني فكرة الموت تكمن في العودة الى الاساس الانساني ، الى ارادة الحياة الاساسية .

رب سائل يسأل : ما هو الاساس الانساني ؟

اتركوا الراعي يختار الشجرة التي يرى فيها راحة لنفسه لان ينطلق من تحت ظلالها نايه .

واتركوه ايضا يختار المرعى الذي يشبع فيه قطيعه ، ولا تسألوه عن محتويات الزاد الذي يحمله معه كل صباح .

اخيرا لا بد من الاعتراف ، ان قصيدة « الزلزال » كثيرا ما ارعبتني ، فآثرت عدم الدخول فيها لانها سيمفونية كاملة واي تشريح لها قد يسيء ، للقصيدة التي تبرز بعمق ما تحدثت عند سابقا .

بيروت — احمد حلاوي

دار الآداب تقدم

الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فمينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميلا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضيعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحن اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميلا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميلا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمعركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترة ، ومن باريس الى همبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميلا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلهما ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا . توكيد ارادة للحياة وللنضال .

يصدر في الشهر القادم